شرح الأربعين النووية

الحديث الخامس والثلاثون

لاَ تَحَاسَدوا وَلاَ تَنَاجَشوا

اللقاء الثامن والثلاثون

الحديث الخامس والثلاثون:

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: "لاَ تَحَاسَدوا، وَلاَ تَنَاجَشوا، وَلاَ تَبَاغَضوا، وَلاَ تَدَابَروا، وَلاَ يَبِع بَعضُكُم عَلَى بَيعِ بَعضٍ، وَكونوا عِبَادَ اللهِ إِخوَانَاً، المُسلِمُ أَخو المُسلم، لاَ يَظلِمهُ، وَلاَ يَخذُلُهُ، وَلا يَكْذِبُهُ، وَلا يَحقِرُهُ، التَّقوَى هَاهُنَا-وَيُشيرُ إِلَى صَدرِهِ ثَلاَثَ مَراتٍ- بِحَسْبِ امرِىءٍ مِن الشَّرِ أَن يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسلِمَ، كُلُّ المُسلِمِ عَلَى المُسلِمِ حَرَام دَمُهُ وَمَالُه وَعِرضُه".

رواه مسلم

ترجمة الراوي:

أبو هُرَيْرَة عبد الرحمن بن صخر الدوسي صحابي محدث وفقيه وحافظ أسلم سنة 7 هـ، ولزم النبي محمداً، وحفظ الحديث عنه، حتى أصبح أكثر الصحابة روايةً وحفظًا للحديث النبوي. لسعة حفظ أبي هريرة، التفّ حوله العديد من الصحابة والتابعين من طلبة الحديث النبوي الذين قدّر البخاري عددهم بأنهم جاوزوا الثمانمائة ممن رووا عن أبي هريرة. كما يعد أبو هريرة واحدًا من أعلام قُرّاء الحجاز، حيث تلقّى القرآن عن النبي محمد، وعرضه على أبي بن كعب، وأخذ عنه عبد الرحمن بن هرمز. تولى أبو هريرة ولاية البحرين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، كمل تولى إمارة المدينة من سنة 40 هـ حتى سنة 41 هـ. وبعدها لزم المدينة يُعلّم الناس الحديث النبوي، ويُفتيهم في أمور دينهم، حتى وفاته سنة 59 هـ. وسبق تحدثنا عن أبي هريرة -رضي الله عنه- في أحاديث سابقة ممكن الرجوع إليها لمن ترغب بالاستزادة.

منزلة الحديث:

هذا الحديث اشتمل على أحكام كثيرة وفوائد عظيمة لبلوغ هذه الغاية الإسلامية النبيلة، وحمايتها من كل عيب أو خلل، حتى لا تصبح الأخوة كلامًا يهتف به الناس، وخيالًا يحلمون به ولا يلمسون له في واقع حياتهم أي أثر[الوافي].

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: هو حديث كثير الفوائد، مشير إلى جل المبادئ والمقاصد، بل هو عند تأمل معناه وفهم مغزاه حاوٍ لجميع أحكام الإسلام منطوقًا ومفهومًا، ومشتمل على جميع الآداب أيضًا إيماءً وتحقيقًا [فتح المبين].

قال الجرداني رحمه الله: هذا حديث عظيم الفوائد، ومن جوامع كلمه -ﷺ- [الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية].

قال الفشني رحمه الله: إن هذا الحديث عظيم الفوائد، كثير العوائد [المجالس السنية].

قال الإمام النووي رحمه الله: ما أعظمَ نفعَ هذا الحديث، وأكثرَ فوائدَه! [الأذكار للنووي].

شرح الحديث:

((لاَ تَحَاسَدوا)) والحسد: هو تمني زوال نعمة المحسود إلى الحاسد، والمعنى: لا يحسد بعضكم بعضًا، والحسد مركوز في طباع البشر، وهو أن الإنسان يكره أن يفوقه أحد من جنسه في شيء من الفضائل.

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله -: " أصل الحسد هو بغض نعمة الله على المحسود، وتمني زوالها، فالحاسد عدو النعم وهذا الشر هو من نفسه وطبعها، ليس هو شيئا اكتسبه من غيرها بل هو من خبثها وشرها.

والحسد كما عرفه شيخ الإسلام: شدة البغض للمحسود؛ فيكون معها تمني زوال النعمة.

"ما خلا جسدٌ من حسدٍ، لكن اللَّئيم يبديه والكريم يخفيه".

وقد قيل للحسن: أيحسد المؤمن فقال: ما أنساك إخوة يوسف لا أبا لك، ولكن عَمِّه في صدرك فإنه لا يضرُّك ما لم تَعْدُ به يدًا ولسانًا. فمن وجد ذلك فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر، فيكره ذلك من نفسه. ابن_ تيمية "الفتاوى"

هَذَا الحَدِيثُ أَصْلٌ فِي التَّعَامُلِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَبِالْتِزَامِهِ تَتَحَقَّقُ الأُخُوَّةُ بَيْنَهُم، وَلِذَا قَالَ فِيهِ: (وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا).

بَدَأَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بِالتَّحْذِيرِ مِنَ الحَسَدِ، أَجَارَنَا اللهُ مِنْ شَرِّ الحَسَدِ وَالحَاسِدِينَ.

الحَسَدُ: هُوَ: تَمَنِّي زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْ صَاحِبِهَا: سواءً كَانَتْ نِعْمَةَ دِينٍ أَوْ دُنْيَا.

وهوَ ذَنْبٌ عَظِيمٌ، وَخَصْلَةٌ قَبِيحَةٌ، وَصِفَةٌ لِشَرِّ خَلْقِ اللهِ، اتَّصَفَ بِهِ إِبْلِيسُ، حَسَدَ إِبْلِيسُ آدَمَ وَسَعَى في إِخْرَاجِهِ مِنَ الجَنَّةِ حَتَّى أُخْرِجَ، وَاتَّصَفَ بِهِ اليَهُودُ؛ وَقَالَ تَعَالَى عَنِ اليهودِ: (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) [البقرة: 109]

الحَسَدُ: هُوَ الذَّنْبُ الذي حَمَلَ ابنَ آدَمَ قَابِيلَ عَلَى قَتْلِ أخِيهِ هَابِيلَ، ولِذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الحَسَدُ أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ؛ يَعْنِي: حَسَدُ إبليسَ لآدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ. وَأَوَّلُ ذَنبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ فِي الأَرْضِ؛ يَعْنِي: حَسَدُ ابنُ آدمَ لِأَخِيهِ حَتَّى قَتَلَهُ.

الحَسَدُ: دَاءٌ عُضَالٌ؛ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ أَهْلِهِ: (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) [الفلق:5]

وَأَوَّلُ مَا يَفْتِكُ بِصَاحِبِهِ، وَلَرُبَّمَا أَفْضَى بِهِ إلى التَّلَفِ مِنْ غَيرِ إِضْرَارٍ بِمَحْسُودٍ، قَالَ أَحَدُ الحُكَمَاءِ: يَكفِيكَ مِنَ الحَاسِدِ أَنَّهُ يَغْتَمُّ وَقْتَ سُرُورِك.

فإن قيل: ما معنى قوله -ﷺ-:"لا حسدَ إلا على اثنتينِ رجلٌ آتاه اللهُ مالًا فهو ينفقُ منه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ ورجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ فهو يقومُ به آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ" متفق عليه، هل هو إباحة للحسد في الخَصلتين المذكورتين أو لا؟ قال العلماء: الحسد لا يباح بوجه من الوجوه، وأما قوله: ((لا حسدَ إلا على اثنتين))، هذا حَسَدٌ مَحمودٌ مُستحَبٌّ شرْعًا، وهو أنْ يرَى نِعمةً دِينيَّةً عندَ غيرِه، فيَتمنَّاها لنفْسِه من غيرِ تَمنِّي زَوالِها عن صاحِبِها، ويُسمَّى الغِبْطَةَ ؛ أي: ليس شيء في الدنيا حقيقًا بالغبطة عليه إلا هاتان الخَصلتان: إنفاق المال والعلم في سبيل الله عز وجل.

والفرق بين الحسد والغبطة أن الحسد تمني زوال النعمة عن الغير، والغبطة تمني الإنسان مثل ما لغيره، من غير أن يزول عن الغير ما له.

فعلى المسلم أنْ يحْذَرَ من هذه الخصلة الذميمة، والعادة الممقوتة، فلا يتمنى زوال نعمةِ عبْدٍ أنعَمَ الله بها عليه؛ بل عليه أن يسأل الله الكريم من فضله بأن يعطيه مثل ما أعطى فلانا أو أزْيَد منه؛ فإن الله –سبحانه– هو المسؤول، وهو الرب الكريم القادر بأن يعطي فلانا أو أفضل منه.

والحاسد في غم لا ينقطع، ومصيبة لا يؤجر عليها، ومذمة لا يحمد بها، ويسخط عليه الرب، ويغلق عنه أبواب التوفيق.

وَلمَّا كَانَ الحَسَدُ مِنْ صِفاتِ شَرِّ خَلْقِ اللهِ، فإنَّ سَلامَةَ الصُّدُورِ مِنهُ مِنْ صفاتِ أوْلياءِ اللهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الأنصار: (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[الحشر:9]، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: أيْ: وَلَا يَجِدُونَ فِي أنْفُسِهِم حَسَداً لِلمُهَاجِرِينَ فِيمَا فَضَّلَهُم اللهُ بِهِ مِنَ المَنْزِلَةِ والشَّرَفِ والتَّقدِيمِ في الذِّكْرِ والرُّتْبَةِ.

المؤمن يسره ما يسر أخاه ويحزنه ما يحزنه، ويريد لأخيه المؤمن ما يريد لنفسه من الخير، وهذا إنما يأتي مع سلامة المسلم من الغش والغل والحسد؛ فإن الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في نعمة أو يساويه فيها؛ لأنه يحب أن يمتاز على الناس وينفرد عنهم بالنعمة.
والإيمان يقتضي خلاف ذلك، وهو أن يشاركه المؤمنون كلهم في مثل ما أعطاه الله من الخير من غير أن ينقص عليه منه شيء، وقد مدح الله تعالى في كتابه من هذه صفته، وقال تعالى في مدح المؤمنين أيضاً:(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)[الحشر:10]، فمن صفات المؤمنين سلامة قلوبهم وألسنتهم لإخوانهم المؤمنين السابقين واللاحقين والثناء عليهم والدعاء لهم بالمغفرة مع الدعاء لأنفسهم.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوساً مَعَ رَسُولِ اللهِ –ﷺ–؛ فَقَالَ: "يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ، قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَ النَّبِيُّ –ﷺ–، مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى. فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ، قَالَ النَّبِيُّ –ﷺ–، مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ –ﷺ– تَبِعَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ..." إلى آخِرِ الحَدِيثِ؛ وَفِيهِ: "فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ" رواه الإمام أحمد، وقال الألباني إسناده صحيح على شرط الشيخين.

🖃 لنتق الله تَعَالَى، ونبْتَعِد كُلَّ البُعْدِ عَن هَذَا الدَّاءِ؛ وَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ شَيءٌ مِنْهُ فَلْيَسْعَ حَثِيثاً لِلْخَلَاصِ، وَلْيُعَالِجْ نَفْسَهُ، وَلْيَذْكُرْ عَظِيمَ ذَنْبِهِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، وأَنَّ هُنَاكَ أُمُوراً مُعِينَةً عَلَى السَّلَامَةِ مِنْ هَذَا الدَّاءِ:

❍أَوَّلُهَا الإِيمَانُ باللهِ تَعَالَى وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ، وَالعِلْمُ أَنَّ مَا أُوتِيَ النَّاسُ مِنَ النِّعَمِ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ؛ فَهُوَ الذِي قَدَّرَ الأَقْدَارَ، وَقَسَّمَ الأَرْزَاقَ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَصْلُحُ لِعِبَادِهِ.

⇦فإن الله –سبحانه وتعالى– يعطي لحكمةٍ ويمنع لحكمة، وهو العالِم وحده بمصالح عباده وما يصلحهم، والسعيد مَن رضي بقضاء الله وقدره، والعبد قد يحب شيئا وهو شرٌّ له، وقد يكره شيئا وهو خيرا له، وقد يظهر ذلك في الدنيا، وقد لا يظهر إلا في الآخرة، فعلى العبد المسلم أن يفعل الأسباب، وأن يرضى بما قدَّرَ اللهُ، ولا يتمنى زوال نعمة أنعم الله بها على غيره أو يحسده عليها.

❍وَمِنْ ذَلِكَ: قِرَاءَةُ النُّصُوصِ فِي ذَمِّ الحَسَدِ والتَّحْذِيرِ مِنْهُ وَبَيَانِ خُطُورَتِهِ عَلى القُلُوبِ وَعَلَى الحَسَنَاتِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ. أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ.

❍ومِنْ ذَلكَ: أَنْ يَتَذَكَّرَ عِنْدَمَا يَرَى صَاحِبَ نِعْمَةٍ؛ مَا أُعْطِيَ هُوَ مِنَ النِّعَمِ مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ، وَصِحَّةٍ، وَمَنْصِبٍ وَغَيْرِهَا.

❍وَمِنْ ذَلِكَ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الحَسُودَ بَغِيضٌ إِلَى النَّاسِ مَمْقُوتٌ بَيْنَهُم، لَا يَأنَسُونَ بِمَجْلِسٍ هُوَ فِيهِ.

❁فَاللهُمَّ احْفَظْنَا مِنَ الحَسَدِ وأَعِذْنَا مِنْ شَرِّ الحَاسِدِينَ.

((وَلاَ تَنَاجَشوا)) والمناجشة: أن يزيد في السلعة – أي: في ثمنها – في المناداة، وهو لا يريد شراءها، وإنما يريد نفع البائع، أو الإضرار بالمشتري.

❍التناجش هو نوعٌ من أنواع آفات اللسان، خاصٌّ بالبيع والشراء، وهو نوعٌ من الخديعة والمكر، وأكل أموال الناس بالباطل.

❍وقال الجُرجاني رحمه الله: "النَّجْشُ: أن تزيدَ في ثمن سلعة، ولا رغبة لك في شرائها".

❍وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "النَّجْشُ: هو الزيادة في ثمن السلعة ممَّن لا يريد شراءها ليقع غيره فيها، وقد سُمِّي تناجشًا؛ لأن الناجش يثيرُ الرغبة في السلعة، ويقع ذلك بمُواطأة البائع فيشتركان في الإثم".

❍وقال ابن قدامة رحمه الله: "النَّجْشُ منهيٌّ عنه، وهو حرامٌ وخداع، وفيه تغريرٌ بالمُشتري".

((وَلاَ تَبَاغَضوا))؛ أي: لا تتعاطوا أسباب البغضاء؛ فالبغض حرام إلا في الله تعالى؛ فإنه واجب، ومن كمال الإيمان؛ كما قال -ﷺ-: ((من أحبَّ للهِ وأبغض للهِ وأعطَى للهِ ومنع للهِ فقد استكمل الإيمانَ)) [السلسلة الصحيحة].

خلق فطري، وشعور قلبي، لا ينفك عنه أحد من البشر، متى ما وظَّفَ الإنسان المؤمن هذا الشعور وجعله لله سما وارتفع وفاز ونجا لأنه استمسك بأوثق عرى الإيمان" من أحبَّ للهِ وأبغض للهِ"، ومتى ما خص الإنسان ذلك الشعور بالدنيا والهوى والأغراض الشخصية تحول لداء عضال وتلقفه الشيطان وحوله لريح مدمرة، إنه أداة من أدوات الشيطان الأساس في تدمير المجتمعات.
وقد حرم علينا ربنا الوسائل التي تؤدي إليه حتى لا يتلاعب بنا الشيطان فقال جل في علاه محذراً:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) [المائدة:90-91].

وقال عز وجل محذراً: (وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا) [الإسراء:53]

❍وقل لعبادي المؤمنين يقولوا في تخاطبهم وتحاورهم الكلام الحسن الطيب؛ فإنهم إن لم يفعلوا ذلك ألقى الشيطان بينهم العداوة والفساد والخصام. التفسير الميسر

من أعظم أسباب البغضاء انفتاح الدنيا على الناس، قَالَ عُمَرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ هَذَا الْمَالَ وَاللَّهِ مَا أُعْطِيَهُ قَوْمٌ إِلَّا أُلْقِيَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ.

البغضاء تعمي القلب وتطفئ نور العبادة، وهي سبب في تفريق كلمة المسلمين وتمزيق المجتمع؛ فعجباً عجباً من أمة قدوتها خير البشر -ﷺ- ربهم واحد ودينهم واحد ويصلون في مسجد واحد ويبغض بعضهم بعضا، ويتربص كل واحد منهم بالآخر الدوائر! عجباً من جيران يجمعهم حي واحد أو عمارة واحدة ويبغض بعضهم بعضاً! عجباً لإخوة من رجل واحد أو حوتهم

بطن واحدة ورضعوا من ثدي واحد يبغض بعضهم بعضاً! عجباً من زوج وزوجة يجمعهم بيت واحد ويأكلون من صحن واحد ويبغض بعضهم بعضاً! وليت ذلك البغض من أجل الدين؛ بل مع الأسف على لعاعة من الدنيا، بل بعضهم يحب أهل الفسق والفجور العصيان ويبغض رجلاً مصلياً في المسجد! فهل وضع أمثال هؤلاء البغض في مكانه الصحيح أم أنهم أسلموا قيادهم للشيطان، وقال -ﷺ-:"سيُصيبُ أُمَّتي داءُ الأُممِ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ وما داءُ الأُممِ؟ قال: الأشرُ البطرُ، والتكاثرُ والتناجشُ في الدنيا، والتباغضُ والتحاسدُ حتى يكونَ البغيُ". السلسلة الصحيحة

وقال -ﷺ-: "ألَا أَدُلُّكُم على أَفْضَلَ من درجةِ الصلاةِ والصيامِ والصدقةِ؟ قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ. قال: إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ فإنَّ فسادَ ذاتِ البَيْنِ هي الحالِقَةُ. لا أقولُ: إنها تَحْلِقُ الشَّعْرَ ولكن تَحْلِقُ الدِّينَ" صحيح الترمذي.

ورب العالمين يدعونا لنبذ البغضاء والتآخي وإصلاح ذات البين بقوله:(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [الحجرات:10].

وقال بعض الصَّحابة: (مَن أراد فضل العابدين، فليصلح بين النَّاس، ولا يوقع بينهم العداوة والبَغْضاء).

وقال الغزَّالي: (اعلم أنَّ الأُلفة ثمرة حسن الخُلُق، والتَّفرُّق ثمرة سوء الخُلُق، فحُسْن الخُلُق يُوجِب التَّحابَّ والتَّآلف والتَّوافق. وسوء الخُلُق يثمر التَّباغض والتَّحاسد والتَّدابر).

((وَلاَ تَدَابَرُوا))؛ أي: لا يهجر أحدكم أخاه، وإن رآه أعطاه دبره أو ظهره؛ قال -ﷺ-: ((لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيالٍ، يَلْتَقِيانِ فيُعْرِضُ هذا ويُعْرِضُ هذا، وخَيْرُهُما الذي يَبْدَأُ بالسَّلامِ)) [صحيح مسلم].

وكثير من الناس يجهلون إثم التهاجر بين الناس، وأنه قد يصل إلى أن يكون كبيرة من كبائر الذنوب؛ إذ لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيام؛ لما روته عَائِشَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ: "لا يَكُونُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ مُسْلِمًا فَوْقَ ثَلاثَةٍ، فَإِذَا لَقِيَهُ سَلَّمَ عَلَيْهِ ثَلاثَ مِرَارٍ، كُلَّ ذَلِكَ لا يَرُدُّ عَلَيْهِ، فَقَدْ بَاءَ بِإِثْمِهِ"(رواه أبو داود).

إثم الهجر يزول بمجرد السلام، ومن سلم على صاحبه يريد التصالح فلم يرد عليه، ردت عليه الملائكة؛ قَالَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ-: "لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ مُسْلِمًا فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، فَإِنْ كَانَ تَصَارَمَا فَوْقَ ثَلَاثٍ، فَإِنَّهُمَا نَاكِبَانِ عَنْ الْحَقِّ مَا دَامَا عَلَى صُرَامِهِمَا، وَأَوَّلُهُمَا فَيْئًا فَسَبْقُهُ بِالْفَيْءِ

كَفَّارَتُهُ، فَإِنْ سَلَّمَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ سَلامَهُ، رَدَّتْ عَلَيْهِ الْمَلائِكَةُ، وَرَدَّ عَلَى الآخَرِ الشَّيْطَانُ، فَإِنْ مَاتَا عَلَى صُرَامِهِمَا لَمْ يَجْتَمِعَا فِي الْجَنَّةِ أَبَدًا"(رواه أحمد).

واعلموا أن المتهاجِرَيْن يُحرمون من مغفرة الله -تعالى- حين تعرض أعمال العباد على الله عز وجل كل اثنين وخميس، فعن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- رفعه الى النبي -ﷺ- قَالَ: "تُعْرَضُ الأَعْمَالُ فِي كُلِّ يَوْمِ خَمِيسٍ وَاثْنَيْنِ، فَيَغْفِرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِكُلِّ امْرِئٍ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلاَّ امْرَأً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ اتْرُكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا اتْرُكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا"(رواه مسلم).

ومن هجر أخاه سنة كاملة كان إثمه كإثم قاتل نفس مؤمنة؛ قال رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ-: "مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ"(رواه أبو داود، وصححه الألباني).

وإذا وقع التهاجر بين الأقارب زاد الإثم؛ لأنهما جمعا بين إثم التهاجر وإثم قطيعة الرحم.

تواضعوا واصفحوا عما حصل، وادفنوا الماضي بما فيه، وكونوا سباقين إلى الخير؛ لتفوزوا بكامل الأجر، وإلا سيقال في حقكم كل اثنين وخميس: "أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا"، بل احمدوا الله -تعالى- أنه لم يأت أجلُكم وأنت مخاصمين وهاجرين لأحد من المسلمين دون مبرر شرعي، ولو حصل ذلك سيكونوا من أهل النار لأنها كبيرة من كبائر الذنوب؛ وصاحبها متوعد بالنار؛ فقد قال -ﷺ-: "لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ، فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ"(رواه أبو داود).

المؤمنون رحماء يتواصلون ويتعاونون على البر والتقوى ويتناصحون، كل واحد يحب لأخيه الخير ويكره له الشر ينصح له ... يؤدي له الأمانة يلقاه بوجه طلق كما في الحديث الصحيح يقول -ﷺ-: "لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعروفِ شيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ" صحيح مسلم. كونه يقابله بوجه منبسط هذا من المعروف، فكيف يعطيه ظهره، أو يتجاهله وقال-ﷺ-: "إِنَّكُمْ لا تَسَعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ" الترغيب والترهيب، ويقول ﷺ: "البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ"صحيح الجامع، ويقول -ﷺ-: "إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنَكُم أخلاقًا"صحيح الترمذي.

نسأل الله أن يؤلف بين قلوبنا، ويجعلنا متحابين فيه، ويبعد عنا عوامل الفرقة والاختلاف، ويطهر قلوبنا من الغل والحقد والحسد.

((وَلاَ يَبِع بَعضُكُم عَلَى بَيعِ بَعضٍ))، وصورته أن يقول الرجل لمن اشترى سلعة في زمن خيار المجلس أو خيار الشرط: افسخ لأبيعك خيرًا منها بمثل ثمنها، أو مثلها بأنقص، ومثل ذلك الشراء على الشراء، كأن يقول للبائع: افسخ البيع لأشتري منك بأكثر، وقد أجمع العلماء على أن البيعَ على البيع والشراءَ على الشراء حرامٌ[الوافي].

إذا كان المؤمن لا يرضى أن يظلم؛ فكيف يظلم الناس؟ وإذا كان المؤمن لو خطب امرأة أو باع سلعة أو اشتراها لا يرضى أن يفسد عليه ذلك أحد فيخطب على خطبته أو يبيع على بيعه، أو يشتري على شرائه؛ فكيف تصدر منه هذه الأمور في حق إخوانه المؤمنين...

إذا كان المؤمن لا يرضى أن يغشه أحد في بيعه وشرائه؛ فكيف يغش إخوانه ويخدعهم في معاملاتهم وحياتهم، بل هناك من يفسد الأسر بمكره وخبث طويته، لا نتكلم عن بضاعة وسيارة، نتكلم عن أعراض، وفراش، ونسب، نتكلم عمن يبيع ويشتري الصداقة والأخوة والعشرة ليشبع شجعه وطمعه، إذا كان المؤمن لا يرضى أن يؤذيه أحد في تجارة وبضاعة، فكيف بعرض أخ وزوجة وجار وجارة وصديق وقريب وحبيب ونسيب...، قال النبي -ﷺ-: " واللَّهِ لا يُؤْمِنُ، واللَّهِ لا يُؤْمِنُ، واللَّهِ لا يُؤْمِنُ. قيلَ: ومَن يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: الذي لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوايِقَهُ"، كيف لو يرى رسول الله-ﷺ- الأخ لا يأمن بوائق أخوه، بل إن الأم لا تأمن بوائق ابنها... وإلى الله المشتكى

((وَكونوا عِبَادَ اللهِ إِخوَانَاً))؛ أي: تعاملوا وتعاشروا معاملة الإخوة ومعاشرتهم في المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون في الخير، مع صفاء القلوب والنصيحة بكل حال.

إن مما يحدث الفرقة بين المسلمين، ويقطع عرى المودة والصلة بينهم، ويضعف قوتهم، ويُشَتِّت شملهم، ويفرق جمعهم: الغيبة والنميمة، والظن والتجسس، والتحاسد والتدابر؛ فإن هذه الأدواء والأمراض من عوامل الهدم والتدمير بين المسلمين إخوانا وفرادى وجماعات لذلك نهى رسول الله-ﷺ- عن هذه الأدواء وبين أن الأخوة لا تستقيم حتى نعالج هذه الأمراض ونعتزلها ونبتعد عنها، فقال وَكونوا عِبَادَ اللهِ إِخوَانَاً، فالأخوة أقوى رابطة تجمع بين الناس، فلا تبقى أخوة مع غيبة ونميمة وسوء ظن، كم فرق النمام بين أخوين وزوجين، وكم أحدثت الغيبة من أحقاد وضغائن، وكم أوقع الظن الخاطئ والتجسس الذي لا مبرر له من عقوبةِ مَن لا يستحق العقوبة، فتثور ثائرة المظلوم، ويدعو على من ظلمه، والرسول-ﷺ-: يقول " اتَّقِ دَعوةَ المظلومِ؛ فإنَّهُ ليسَ بينَها وبينَ اللَّهِ حجابٌ" صحيح الترمذي.

كم تسبب الواشون والمنافقون في إحداث مفاسدَ وتحريكِ فتنٍ تعكِّرُ الصفو، وتفرق الصف، والله -عز وجل- يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) [الحجرات:12].

إن على المسلم أن يكون رقيبا على نفسه، مُحاسِباً لها، صالحا في نفسه، عاملا لمصلحته ومصلحة إخوانه، ساعيا فيما يصلحهم ويصلح أحوالهم، محبا لهم الخير كما يحبه لنفسه.

دين الإسلام دين المودة والإخاء، دين التعاون على البر والتقوى، والتناهي عن الإثم والعدوان.

ومن الإثم أن ينقل الشخص الحديث من شخص إلى آخر على جهة الإفساد، فذلكم النمام الذي قال فيه النبي -ﷺ- محذرا من عمله: " لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتّاتٌ "، وفي رواية: "نمام"، والله -عز وجل- يقول: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) [القلم:10].

إن من الأسباب التي تجعل المغتاب والنمام يسلكون هذا المسلك المشين والخلق الاجتماعي الذميم الحسَدُ المستقر في نفوسهم، والمستكن في قلوبهم، وعلاج الحسد الاستعاذة بالله من شره.

((المُسلِمُ أَخو المُسلم))؛ أي: في الدين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].

❍المسلم يُشاطرُ أخاه أساه، ويُواسِيه في بلوَاه، ويتوجَّعُ لعثرَته وشكوَاه، ويفرح لفرحه.

❍فهذه الأخوة والرابطة الدينية، أقوى من كل رابطة وصلة، نحققها بالمحبة والتآلف، ومحبة الخير للغير ، وبالتعاون على الخير، وبفعل الأسباب التي تقوي ذلك وتنميه، وترك الأسباب التي تضعف ذلك وتنقصه، فالأمة لا تكون أمة ولا يجتمع لها قوة، حتى تكون كما وصفها رسول الله -ﷺ-: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا"، وقد أمر رسول الله -ﷺ- بالتآخي ومجانبة ما يخالف الإخوة لا يظلمه، ولا يُسلمه... لقد بين النبي -ﷺ-المقياس الصحيح للمؤمن الحقيقي في كلمة مختصرة جامعة وهي قوله -ﷺ-: " لَا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ، حتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" صحيح البخاري؛ فإذا كان يحب لنفسه الخير فليحبه لإخوانه ويجتهد في جلبه لهم، وإذا كان يكره لنفسه الشر فليكره لإخوانه فيصرف شره عنهم، ويجتهد في صرف شر غيره عن إخوانه...

((لاَ يَظلِمهُ))؛ أي: لا يتعدى عليه، ولا يدخل عليه الضرر.

وعن النبي -ﷺ- فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: "يا عبادي، إني حرَّمتُ الظلم على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّمًا، فلا تَظالَموا"؛ الحديث.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: 42]، ويقول الرسول -ﷺ-: «وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ الغَمَامِ، وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ"؛ [أخرجه الترمذي (3598) وحسنه].

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: «اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ».

وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة أن النبي -ﷺ- قال: " مَن كَانَتْ له مَظْلَمَةٌ لأخِيهِ مِن عِرْضِهِ أَوْ شيءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليَومَ، قَبْلَ أَنْ لا يَكونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إنْ كانَ له عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ منه بقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وإنْ لَمْ تَكُنْ له حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عليه".

ويسأل-ﷺ-أصحابه فيقول: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟»، قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» [مسلم].

((وَلاَ يَخذُلُهُ)) في مقام يحب أن ينتصر فيه.

الإشارة إلى نصرة المظلومين والضعفاء؛ وفي حديث "ولا يسلمه"؛ أي: لا يترك نصرته مع القدرة؛ يقال: أسلم فلان فلانًا: إذا ألقاه إلى الهلكة ولم يحمه من عدوِّه، أو من مصيبة نزلت به، أو من تسلُّط ظالم عليه، وَلاَ يَخذُلُهُ وخِذلان المسلم للمسلم ترك النصرة له وعدم إعانته على ظالمه.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا قَالَ: "تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ"؛ [أخرجه البخاري].

وفي حديث الْبَرَاءِ بْنَ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: "أَمَرَنَا النَّبِيُّ -ﷺ- بِسَبْعٍ وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ، فَذَكَرَ عِيَادَةَ الْمَرِيضِ وَاتِّبَاعَ الْجَنَائِزِ، وَتَشْمِيتَ الْعَاطِسِ وَرَدَّ السَّلاَمِ، وَنَصْرَ الْمَظْلُومِ، وَإِجَابَةَ الدَّاعِي وَإِبْرَارَ الْمُقْسِمِ"؛ [أخرجه البخاري ومسلم].

وفي سنن أبي داود عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: "مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ، أُرَاهُ قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ، حَبَسَهُ اللَّهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ".

((وَلا يكْذِبُهُ))؛ أي: لا يخبره بأمر على خلاف ما هو عليه؛ لأنه غش وخيانة.

((وَلا يَحْقِرُهُ))؛ أي: لا يستهين به، ولا يستصغره وينظر إليه بعين الاحتقار.

احتِقَارُ المُسلِمِ وَاستِصغَارُهُ، وَالاستِخفَافُ بِهِ وَازدِرَاؤُهُ؛ فَعَن هَذَا الخُلُقِ القَبِيحِ تَصدُرُ كَبَائِرُ وَجَرَائِمُ وَمُوبِقَاتٌ؛ فَيَقتُلُ المُسلِمُ المُسلِمَ، وَيَتَنَاوَلُ عِرضَهُ وَيَهتِكُهُ، وَيَعتَدِي عَلَيهِ في مَالِهِ فَيَسلُبُهُ، وَيَظلِمُهُ وَيَبغِي عَلَيهِ وَيَخذُلُهُ، وَيَكذِبُهُ وَيَغُشُّهُ وَيَخدَعُهُ...

((التَّقْوَى)) اجتناب غضب الله وعقابه؛ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهو الميزان الذي يتفاضل به الناس عند الله تعالى؛ قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

وقال طلق بن حبيب – رحمه الله تعالى-: "التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله، تخاف عقاب الله".

((التَّقْوَى هَاهُنَا – وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَراتٍ –))؛ لأنه محل القلب الذي هو بمنزلة الملك للجسد، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، وتكرار الإشارة للدلالة على عِظَم المشار إليه في الحقيقة، وهو القلب.

وَالمِيزَانُ عِندَ اللهِ التَّقوَى، وَالتَّقوَى مَحَلُّهَا القَلبُ، وَاللهُ أَعلَمُ بِمَنِ اتَّقَى، قَالَ-ﷺ-: "كَم مِن أَشعَثَ أَغبَرَ ذِي طِمرَينِ لا يُؤبَهُ لَهُ، لَو أَقسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ" (رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ).

وَالحَذَرَ الحَذَرَ مِن رُؤيَةِ النَّفسِ وَالاستِهزَاءِ بِالآخَرِينَ وَتَحقِيرِهِم مَهمَا كَانَ أَحَدُنَا مُطِيعًا لِرَبِّهِ مُنعَمًا عَلَيهِ في نَفسِهِ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا كَانَ تَحقِيرُهُ وَاستِهزَاؤُهُ بِإِخوَانِهِ سَبَبًا في انتِكَاسِهِ وَزَوَالِ نِعمَةِ اللهِ عَنهُ؛ فَقَد رَوَى مُسلِمٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ-ﷺ- حَدَّثَ "أَنَّ رَجُلاً قَالَ: وَاللهِ لا يَغفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، وَإِنَّ اللهَ – تَعَالى– قَالَ: "مَن ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَلاَّ أَغفِرَ لِفُلانٍ؟! فَإِنِّي قَد غَفَرتُ لِفُلانٍ وَأَحبَطتُ عَمَلَكَ".

((بِحَسبِ امرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَن يَحقِرَ أَخَاهُ المُسلِمَ)) يعني: يكفيه من الشر احتقاره أخاه المسلم؛ فإنه إنما يحقر أخاه المسلم لتكبره عليه، والكِبْر من أعظم خصال الشر؛ قال النبي -ﷺ-: "لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ" صحيح مسلم.

وَقولُه-ﷺ-: "بِحَسبِ امرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَن يَحقِرَ أَخَاهُ المُسلِمَ"، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَو لم يَكُنْ في الإنسَانِ مِن خِلالِ الشَّرِّ وَرَذَائِلِ الأَخلاقِ، إلاَّ أَن يَحقِرَ أَخَاهُ المُسلِمَ لَكَانَ كَافِيًا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ إِثمِ مَن يَحقِرُ إِخوَانَهُ المُسلِمِينَ وَيَزدَرِيهِم تَكَبُّرًا عَلَيهِم وَعُلُوًّا.

احتِقَارُ النَّاسِ وَازدِرَاؤُهُم وَالتَّكَبُّرُ عَلَيهِم وَالتَّعَاظُمُ أَمَامَهُم وَاستِصغَارُهُم، لا يَصدُرُ إلاَّ مِن جَاهِلٍ بِرَبِّهِ وَجَاهِلٍ بِنَفسِهِ، وَأَمَّا مَنِ امتَلأَ قَلبُهُ عِلمًا بِاللهِ، وَازدَادَ مَعرِفَةً بِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَجَلَّ رَبَّهُ وَعَظَّمَهُ وَأَحَبَّ لِقَاءَهُ، وَعَرَفَ بَعدَ ذَلِكَ نَفسَهُ عَلَى حَقِيقَتِهَا وَأَدرَكَ قِيمَتَهَا، وَاطَّلَعَ عَلَى عُيُوبِهَا وَآفَاتِهَا، وَاستَشعَرَ نَقصَهَا وَمَا يَعتَرِيهَا مِن ضَعفٍ؛ فَإِنَّهُ يَمتَلِئُ إِيمَانًا بِقُوَّةِ اللهِ وَيَزدَادُ خُشُوعًا، وَيَنكَسِرُ قَلبُهُ لِخَالِقِهِ انقِيَادًا وَخُضُوعًا، وَيَخفِضُ جَنَاحَ الذُّلِّ لِعِبَادِ اللهِ تَوَاضُعًا، وَتَعمُرُ جَوَانِحَهُ الرَّحمَةُ بِهِم وَالشَّفَقَةُ عَلَيهِم احتِسَابًا لِمَا عِندَ اللهِ.

لْنَخفِضِ الجَنَاحَ لِلمُؤمِنِينَ؛ فَقَد أَمَرَ اللهُ بِذَلِكَ نَبِيَّهُ؛ فَقَالَ: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) [الحجر: 88]، وَلْنَحذَرِ التَّعَالِيَ وَالتَّعَاظُمَ عَلَى النَّاسِ مَهمَا احتَقَرَتهُم أَعيُنُنَا أَو صَغُرَ شَأنُهُم في الظَّاهِرِ؛ فَقَدِ استَهَانَ إِبلِيسُ بِآدَمَ وَسَخِرَ مِنهُ قَائِلاً: (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) [الأعراف: 12]؛ فَبَاءَ بِالخَسَارَةِ وَالخِذلانِ وَأَبعَدَهُ اللهُ، (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) [الأعراف: 13].

((كُلُّ المُسلِمِ عَلَى المُسلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ))؛ أي: لا يجوز أن يتعدى عليه بقتل أو فيما دونه، ((وَمَالُه))؛ أي: أخذه بغير وجه حق؛ بسرقة أو نهب أو غير ذلك، ((وَعِرضُه))؛ أي: هتكه وذمه والوقوع فيه بالغيبة ونحوها.

وَلْنَعلَمْ أَنَّ الزَّمَانَ لا يَثبُتُ عَلَى حَالٍ، وَالدُّنيَا لا تَدُومُ عَلَى شَأنٍ؛ فَتَارَةً فَقرٌ وَتَارَةً غِنًى، وَحِينًا عِزٌّ وَحِينًا ذُلٌّ، وَآنًا صِحَّةٌ وَعَافِيَةٌ، وَآنًا مَرَضٌ وَابتِلاءٌ، وَلَكِنَّ السَّعِيدَ مَن لازَمَ أَصلاً وَاحِدًا عَلَى كُلِّ حَالٍ، أَلا وَهُوَ تَقوَى اللهِ وَالتَّوَاضُعُ وَحُسنُ الخُلُقِ في كُلِّ حِينٍ؛ فَهَذَا الَّذِي يَزِينُ العَبدَ وَيَبقَى مَعَهُ؛ إِذْ بِالتَّقوَى يَكمُلُ قِيَامُهُ بِحُقُوقِ اللهِ، وَبِحُسنِ الخُلُقِ يَكمُلُ قِيَامُهُ بِحُقُوقِ عِبَادِهِ، قَالَ-تَعَالَى-: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [آل عمران: 133-134].

وَعَن أَبي هُرَيرَةَ- رَضِيَ اللهُ عَنهُ- قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-عَن أَكثَرِ مَا يُدخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ؛ فَقَالَ: "تَقوَى اللهِ وَحُسنُ الخُلُقِ" (الحَدِيثَ رَوَاهُ التِرمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ الأَلبَانيُّ)، وَقَالَ-ﷺ-: "مَا مِن شَيءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثقَلُ مِن حُسنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسنِ الخُلُقِ لَيَبلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّومِ وَالصَّلاةِ" (رَوَاهُ التِرمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ الأَلبَانيُّ)

وهناك زيادة في رواية أخرى لهذا الحديث الذي شرحنا وفيه قول النبي-ﷺ-: "إِنَّ اللهَ تعالى لَا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوالِكُمْ، ولكنْ إنَّما ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم"

يرشدنا النبيُّ -ﷺ- أنَّ الناسَ لا تَتفاضَلُ بحُسْنِ المظاهِرِ أو كَثرةِ الأموالِ، وإنما تتفاضلُ بطَهارةِ القلوبِ، والخَشيةِ من اللهِ، والسَّعيِ في الأعمالِ الصالحةِ، يقولُ النبيُّ -ﷺ-: "إنَّ اللهَ تعالى لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم، وأموالِكم"، أي: إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لا يَنظُرُ إلى أجسامِ العبادِ؛ هلْ هي كَبيرةٌ أو صَغيرةٌ، أو صَحيحةٌ أو سَقيمةٌ، ولا يَنظُرُ إلى الصُّوَرِ؛ هل هي جميلةٌ أو ذَميمةٌ؛ ولا يَنظُرُ إلى الأموالِ كثيرةٍ أو قليلةٍ؛ فلا يُؤاخِذُ اللهُ عزَّ وجلَّ عبادَه، ولا يُحاسبُهم على هذه الأمورِ وتَفاوُتِهم فيها، "ولكنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم"، أي: إلى ما فيها من التَّقْوى واليقينِ، والصدقِ والإخلاصِ، وقصدِ الرياءِ والسُّمعةِ، وسائرِ الأخلاقِ الحَسنةِ والقبيحةِ، "وأعمالِكم"، أي: وينظُرُ إلى أعمالِكم من حيثُ صلاحُها وفسادُها؛ فيثيبُ ويُجازي عليها؛ فلَيسَ بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ خلْقِه صِلةٌ إلَّا بِالتَّقْوى؛ فمَنْ كان للهِ أتْقَى كان من اللهِ أقربَ، وكان عندَ اللهِ أكرمَ؛ إذَنْ فعلى المَرْءِ ألَّا يَفخرَ بمالِه ولا بِجَمالِه ولا ببدنِه ولا بأولادِه ولا بقُصورِه، ولا بِشيءٍ من هذه الدُّنْيا أبدًا، إنَّما إذا وفَّقه اللهُ لِلتَّقوى؛ فهذا من فَضلِ اللهِ عليه؛ فَلْيحمدِ اللهَ عليه، وإنْ خُذِلَ فلا يَلومَنَّ إلَّا نفْسَه. الدرر السنية

المراجع:

❶شرح حديث: لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا: عبد العال سعد الشليّه.

❷ولا تباغضوا: الدكتور عصام بن هاشم الجفري.

❸تحصين المجتمع من أمراض القلوب والألسن: خالد بن سعد الخشلان.

❹ولا يحقره: عبد الله بن محمد البصري.